من روائع الشرق والغرب

المنصور Almansor

للشاعر الألماني هاينرخ هاينه Heinrich Heine

نقلها عن الألمانية

الدكتور زكي محمد حسن

الأمين العلمي لدار الآثار العربية

هاينرخ هاينه شاعر غنائي وكاتب ألماني ولد من أبوين يهوديين بدسلدورف سنة ١٧٩٧ ودرس الحقوق ولكنه هجرها إلى الأدب وذاع صيته فيه سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٢٧ حين ظهر كتابه « صور رحلة » Reisebilder عن طوافه في ألمانيا ، وما لبث أن نشر أحسن شعره في ديوان سماه كتاب الأغاني Buch der Lieder قابله القراء في ألمانيا بحماسة تفوق الوصف

واعتنق هاينه الدين المسيحي سنة ١٨٢٥ ، ولكنه كان في الحقيقة متشككاً في كل شيء ، إباحيا جد الأباحة ، مستهتراً كل الاستهتار . وفي سنة ١٨٣٠ هاجر هاينه إلى باريس فاستوطنها واشتهر في أنديتها الأدبية حتى توفي سنة ١٨٥١ بعد أن أقعده الشلل في أواخر حياته

وظل الألمان يعدونه من أكابر كتابهم وشعرائهم حتى كان الانقلاب الأخير ، ففي المنتزعون عليه أصله اليهودي فانقلبوا على ذكراه وهدموا ما أقيم له في ألمانيا من أنصاب وتماثيل

وامتاز هاينه بأسلوبه الهكمي اللاذع ووصفه الدقيق المشرق ، بيد أن أهم ما خلد ذكراه حتى الآن وسوف يخلدها طويلاً إنما هي أغانيه في ديوانه الذي أشرنا إليه ؛ وانا ننقل منه إلى العربية القصيدة الآتية التي يعجب الألمان بها كثيراً على الرغم من تعريضه فيها بالمسيحية قال :

في الكنيسة الكبيرة بقرطبة
تقف أعمدة ثلثمائة وألف ،

ثلثمائة وألف من الأعمدة الشاهقة تحمل القبة العظيمة الضخمة

وعلى الأعمدة والقبة والجدران تجري وتنحدر في كل اتجاه آيات القرآن العربية في حروف مشبكة مزهرة مزخرفة

قديماً بنى ملوك العرب هذا البيت تمجيداً لذكر الله ، بيد أن أشياء كثيرة قد تغيرت في هذا الدهر ذي الأحداث المظلمة !

فعلى المنارة حيث كان المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة ، ترسل الآن أجراس المسيحية رنين دقاتها الحزينة

وعلى المنبر حيث كان المؤمنون يرتلون كلام النبي ، يعرض الآن القس الصغار الصلع أعاجيب قداسهم المضجر !

وهناك دوران والتفاف ، حول نساء كالعرائس المنقوشة بالألوان المختلفة ، وهناك ثغاء وتبخر وأصوات نواقيس ، بينما الشموع النبية ترسل أضواءها

في الكنيسة الكبيرة بقرطبة ، يقف المنصور بن عبد الله يتأمل الأعمدة في سكون ، ويغمغم بالكلمات الآتية :

إليه أيتها الأعمدة القوية الجبارة
التي ازّينتْ ذات يوم تعظيما لله
ها أنت ذي الآن مضطرة إلى أن تقدمي للمسيحية المشنوءة
فروض الطاعة في ذلة وخنوع

أنت على ممر العصور ترضين وتقنعين ،
وأنت تحملين العبء بصبر واستسلام ،
فكان جديراً بمن هو أضعف منك أن يكون أسهل انقياداً
وأسرع خضوعاً

ثم يطأطئ المنصور بن عبد الله رأسه ذا الوجه الطلق فوق حوض المعمودية المزخرف فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة !

***

وهرول المنصور بن الكنيسة مسرعا ،
فامتطى جواداً عتيقاً جموحاً انطلق به ،
حتى صارت خصلات شعره المبللة
وريش قبعته تهتز فى الريح

فى الطريق الى القليعة [1] على ضفة الوادى الكبير
حيث تزهر شجيرات اللوز وشجيرات البرتقال ذات الرائحة الزكية

هناك يسير الفارس المرح وهو يصفر ويغني ويضحك
والطيور تشاركه فى شدوه
وخرير النهر يتابعه فى طربه

وفى قصر القليعة تقطن « كلارا دى الفارس »
ووالدها يحارب فى نافار ،
فهى تتمتع بحرية أوسع وأمنة أوفر .

ويسمع المنصور على بعد أصوات الدفوف والطبول ،
ويرى أضواء القصر تتلألأ بين الأشجار والحقول

فى قصر القليعة ترقص اثنتا عشرة سيدة بثيابهن المزركشة ،
ويرقص اثنا عشر فارساً بحللهم المطرزة
ولكن أجلهم رقصاً وسمتا هو المنصور بن عبد الله !

كأن له جناحين من البهجة والسرور !
فهو يرفرف فى القاعة هنا وهناك !
وهو يعرف كيف يقول لكل حسناء ،
عبارات اللطف والنزل والاطراء

فيدا « إزابلا » الجميلتان يقبلهما بشغف ، ثم يقفز مسرعاً
ويجلس إزاء « الفيرا » فيقبل عليها بوجهه الفرح

وهو يسأل « ليونورا » ضاحكاً :
هل كانت تحبه اليوم ؟
وهو يريها الصليب الذهبي المطرز فى معطفه !

وهو يؤكد لكل سيدة أن صورتها مرسومة فى قلبه
مقسماً ثلاثين مرة فى تلك الليلة « ما أنا مسيحى ! »

***

فى قصر القليعة انتهى المرح وساد السكون
واختفى الرجال والنساء ، وانطفأت الأنوار

وبقيت دونا كلارا والمنصور وحيدين فى القاعة الكبرى
بينما كان آخر مصباح يبث بضوئه فى عزلة وانفراد

فعلى المقعد الكبير تجلس السيدة ،
وعلى الكرسي الخشبي يجلس الفارس
ورأسه الذى أضناه التعب
يستريح على ركبتى حبيبته

وتصب دونا كلارا باحتراس وهي تفكر
عطرا من قنينة ذهبية فوق خصلات شعره الأسمر
وهو يتنهد من أعماق قلبه

وتطبع وهى غارقة فى لجة التفكير قبلة حلوة من فم رقيق
على خصلات شعره الأسمر
فتعلو السحب جبهته

عبرات من عيون مضيئة
تسكبها الحسناء وهى تفكر
على خصلات شعره الأسمر
فيقبض سريعاً على شفتيه

ويحلم المنصور كأنه يقف ثانية مطأطىء الرأس والجبين
فى كنيسة قرطبة الكبيرة
يسمع كثيراً من الأصوات المميقة

وكل الأعمدة الشاهقة بسمعها تتمتم محتجة متضجرة
فهى لا تريد أن تحتمل أكثر من هذا
وهى تميل وترتعد

وهى تتهدم مزمجرة ، ويكفهر الشمب والقبس
وتهوى القبة فى صوت عظيم
وتولول آلهة المسيحية

زكى محمد حسن

(١) ضاحية من ضواحى قرطبة غير مسكونة الآن